ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 06، العدد: 02 (2021) ص: 97 – 109

المثقف الديني والسلطة السياسية في الشعر العربي الحديث والمعاصر – سجنيات يوسف القرضاوي أنموذجا –

The Religious Intellectual and Political Authority in Modern and Contemporary Arab Poetry: Yusuf al-Qaradawi's Prison Poems as a case Study

د. ناصري علاوة

قسم اللغة والأدب العربي - جامعةتبسة

allaouanasri1958@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2021 /04 /28
تاريخ القبول:
2021 /06 /03

الكلمات المفتاحية:
- ✓ سجون
- ✓ التعذيب
- ✓ الإهانة
- ✓ انفراج الأزمة
- ✓ العنف

الملخص:

شهدت معتقلات وسجون مصر زمن الملك فاروق، وحكومة الثورة بزعامة جمال عبد الناصر ميلاد سجنيات يوسف القرضاوي التي وثق فيها جانبا من الصراع الدموي، والعنيف بين تلك السلطات – وقد لبست لباسا عسكريا – وبين حركة الإخوان ذات الاتجاه الديني.

كانت حركة الإخوان من خلال شاعرها الشاب، غير راضية بما أقدمت عليه السلطة من قتل وسجن زعمائها ومنتسبيها.

كان التعذيب الموضوع المهيمن في كل سجنيات القرضاوي، وجاء ماديا ومعنويا هدفه إهانة السجناء وأهاليهم وتخويفهم ليكونوا أجسادا مطيعة في أيدي سجانين قساة... وكان الإخوان في كل هذا مثالا للصبر، ينتظرون انفراج الأزمة.

Article info

Received
28/04/2021
Accepted
03/06/2021

Keywords:
- ✓ *Prisons*
- ✓ *Torture*
- ✓ *Humiliation*
- ✓ *Salvation*
- ✓ *Violence*

Abstract :

The prisons of Egypt during the reign of King Farouk and the Revolution Government led by Carnal Abdel Nasser witnessed the birth of Yusuf al-Qaradawi's prison poems, in which al-Quadawi documented a part of the bloody and violent conflict between the military-backed authorities and religiously oriented Muslim Brotherhood.

The Brotherhood movement and its young poet were dissatisfied with the killing and imprisonment of its leaders and adherents.

The dominant topic of Al-Qaradawi's prison poems was torture,which aimed at insulting the prisoners and their families and intimidating them into becoming obedient bodies in the hands of their harsh prisoners.

1. مقدمة تاريخية

للمثقفين منزلة عند أهل العلم، وهم منارات يستضيء بها الشعوب والأنظمة، ولطالما كانوا محل تكريم وثقة، ولكنهم في قربهم الشديد من رأس السلطة أو وزرائها أو قادتها ما يثير أزمات تصل إلى حد الصراع يدفع ثمنها المثقفون من ذوي الميول المختلفة. والأدب بجميع فنونه ولغاته شاهد على التجاوزات الحاصلة من الجهتين اللتين تسعيان إلى تقديم المبررات التي تقوي موقفها.

2. السجن والمثقف الديني

1.2. السجن والمثقف الديني قديما

بدأ سلطان بني أمية قاسيا على الأمة الإسلامية عامة، والفقهاء والشعراء والمفكرين خاصة، وقد كان الانقلاب الحاصل على الخلافة الراشدة فظيعا حين كان القتل – بأساليبه المختلفة –مطية إلى قصور دمشق بعيدا عن مكة والمدينة.

وما زال الأمويون يتتبعون الخارجين عنهم ويعنفون بهم، فيقتلون من يقتل ويدسون السم لمن لم تبلغهم سيوفهم حتى كانت نهايتهم بالمشرق عام 92هـ/ ليؤسسوا لهم ملكا جديدا بالأندلس عام 141هـ.

واستمر الحال –كذلك– في العصر العباسي (132هـ–656هـ/ 750م–1257م) لما ورث العباسيون بني أمية بالغلبة والقهر ووثلوا عرشهم بيد صنائعهم من الأعجام. كان نفوذ الفرس واضحا من 132هـ إلى 232هـ وكان الخلفاء أكثر قوة وعظمة.. كما كان نفوذ الترك قد بلغ مبلغه في العصر الثاني (232هـ – 374هـ) فضعف الخلفاء وانتشر الفساد...(خفاجي، 2004، ص13). وكان من ضحايا الحكم عامة في هذا العصر المعتز بالله (252هـ– 255هـ/ 866م–869م) وهو الخليفة الثالث عشر، عزله القادة الأتراك ثم قتلوه لأنه كان يكرههم وأراد ان يثأر منهم لأبيه".. وسار الأتراك إلى المعتز، فوبخوه، وطالبوه بالأموال ثم عذبوه، وضربوه بالدبابيس، وجروه برجله إلى باب الحجرة، وأقاموه في الشمس حافيا، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده، فخلع المعتز ثم حبسوه وقتلوه" (خفاجي، 2004، ص16).

كان من ضحايا الحكم العباسي الإمام أبو حنيفة (80 –150هـ) الذي استدعاه المنصور لتولي القضاء في بغداد، ولما رفض حبسه إلى أن مات. ولم ينج سفيان الثوري من بطش الحكام، وكانت آراؤه مثيرة للجدل في وقته ومات عام 161هـ. ومن ضحايا النظام كتاب وشعراء منهم أبو حيان التوحيدي (310 –414هـ)، وأبو العتاهية (130 –241هـ/748–825)، وبشار بن برد (25هـ–167هـ)، وحفصة بن مروة، قبل أن يتحول إلى متهم – الذي كان شاعر العباسية –، ومن شعره مدح المهدي ثالث الخلفاء العباسيين، في قصيدته المشهورة (الكامل):

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَها ... بأكفكمْ أمْ تسترون هلالـها
أمْ تَجْحَدُونَ مَقَالَةً عَنْ رَبّكُمْ ... جِبريلُ بَلَّغَها النَّبيَّ فَقَالَـها
شَهِدَتْ مِنَ الأنْفَالِ آخِرُ آيةٍ ... بتراثهمْ فأردتم إبطالها

ويقال ان المهدي عندما سمع القصيدة أعجب بها، وانفرجت أساريره، وجعل يزحف عند سماعها من صدر مصلاه حتى صار على البساط، وهو مأخوذ مبهور. (مُحَمَّد زغلول سلام، ص 523).

2.2 السجن والمثقف الديني الحديث:

وفي العصر الحديث استمرت معاناة المصلحين، سواء أكانوا كتابا ذوي الاتجاه القومي أم الديني، وتجسدت هذهالمعاناة في كتابات عبد الرحمن الكواكبي (1848-1902) والشاعر ولي الدين يكن (1873-1924)، ومُحَمَّد البشير الإبراهيمي (1889- 21ماي 1965) وغيرهم...كان الكواكبي مفكرا حرا، وولي الدين زنكي كاتبا أبيا والإبراهيمي ممن عرف فرنسا الاستعمارية فكرهها، فسيق إلى مدينة آفلو حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية وكان البشير في هذه السنة (1940) محل اهتمام سكان الأغواط وتلمسان، فكانوا يزورونه ويكاتبونه. (قصيبة وآخرون، ص 277-293).

كان الكواكبي وولي الدين يكن ممن عرف حقيقة الدولة العثمانية، وهي التي حكمت كثيرا من الدول العربية باسم الخلافة الإسلامية... وكانت النتيجة أن سجن الكواكبي بتهمة محاولة اغتيال الوالي التركي عام 1886، وحكم عليه القضاء التركي بالإعدام، لولا أن محكمة بيروت قد برأته ومات مسموما بالقاهرة عام 1902. ومن مؤلفاته: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد وكتابه نموذج لأدب المقاومة.

كما كانت مقالات ولي الدين يكن وأشعاره سببا في معاناته ونفيه إلى"سيواس"*سيواس: مدينة تركية على يد السلطان عبد الحميد ولم يعد إلى الأستانة ثم القاهرة إلا بعد إعلان الدستور. (ولي الدين يكن، 2001، ص17-19).

كانت حيوات هؤلاء المصلحين أهدافا ترمى الحكومات الاستعمارية والحكومات الوطنية التي أوجدت السجون والمعتقلات والمنافي لكم أفواه من أراد لتلك الحكومات سوءا، وقد استطاع القائمون على تلك السجونأن يجهزوها بمختلف أنواع وسائل القمع ليجيء التعذيب متنوعا، ينفذه سجانون سفاحون، ساديون هدفهم خلف أجساد طرية، مراقبة تطيع أمر القائمين على السجون ليلا ونهارا، صيفا وشتاءا. كان كل ذلك موثقا شعرا ورواية ومسرحا ومقالات في سجون الجزائر والمغرب وتونس وليبيا ومصر وسوريا والعراق... التي ورثت تلك السجون بكل تقاليدها من الدول التي استعمرتها.

3. تبعات النشاط الدعوي ليوسف القرضاوي وأثر ذلك في شعره

1.3. نشاط الإخوان في مصر

ولما بلغ يوسف القرضاوي عامه الاثنين والعشرين، كانت جغرافية الشرق الأوسط وتاريخه قد تغيرا، فكان ظهور دولة إسرائيل عام 1948 حدثا قد زلزل المنطقة بكاملها، وأدخلها صراعات لا تنتهي. وكان اعتراف الدول العظمى بدولة اليهود عاملا آخر زاد الوضع تأزما، وهي التي طلبت من مصر أن تكف أيدي الإخوان المسلمين عن إسرائيل.

لقد كان لفرنسا، وبريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية الكلمة العليا حين استجابت مصر في عهدها الملكي وحكومة الثورة استجابة سريعة لرغبات إسرائيل التي دخلت قبل هذا في حرب مع الإخوان الذين رأوا تلك المواجهات مع العدو أكبر إنجازاتهم في وقت" كنا نتلقى من الحكومة مطارق جديدة على رؤوسنا، ففي كل يوم مطاردة، وفي كل يوم قبض، وفي كل يوم مؤامرة، وفي كل يوم تهم جديدة ومحاكمة، وفي كل يوم أوامر متلاحقة بالتضييق والتهديد والتنكيل". (محمود عبد الحليم، 1948-1952، ص98).

كان لا بد للنظام الملكي أن يتحرك بالسرعة الفائقة خدمة لجهات أجنبية خاصة أن المشروع الصهيوني قد أناخ بكلكله على المنطقة العربية، وفرضت الهدنة بين الجيوش العربية والعصابات الصهيونية، وبدا واضحا أن كفة المتطوعين من الإخوان راجحة، وأن وجودهم عقبة أمام استمرار الهدنة وان على الحكومة المصرية ان تحل الجماعة لتوقف أنشطتها وجهادها. (العوا وآخرون، 1424هـ-2004، ص

149). وبالمناسبة لقد صفا الجو لحكومة إبراهيم عبد الهادي بعد أن أدت المهمة الكبرى التي كان عليها إنجازها، فقد أزالت العقبة الكؤود من طريق أولياء نعمتها بالتنكيل بالإخوان المسلمين واعتقالهم، واغتيالهم المرشد العام في جنح الظلام وإلقاء ستار كثيف من الضباب حول هذه الجريمة مما حجب الرؤية حجبا كاملا. (محمود عبد الحليم، 1948-1952، ص 96).

كان ليوسف القرضاوي في هذه الفترة نشاط دعوي، وأدبي، ذلك أنه كان يستمع إلى الشيخ الإمام حسن البنا منذ كان طالبا في السنة الأولى ابتدائي، كما كان يلقي قصائده تحية للإخوان، وذما للإنجليز. قال (من الكامل):

يا أيها الأضياف! لا أهلا ولا سهلا، ولا ترحيب ولا إكرام
الضيف إن تمرر عليه صبائح يثقل، وقد مرت لكم أعوام

(القرضاوي، 2002، ص258).

كان يوسف القرضاوي واعيا بأهمية المرحلة التي تجتازها مصر، فهي تهتز اهتزازا خطيرا لسببين إثنين: قوة الخصم.. فالإنجليز واليهود عدوان وجب محاربتهما.

حكومات وطنية تعمل كثيرا لإرضاء جهات أجنبية ولو تحولت مصر كلها إلى سجون ومعتقلات ومقابر.

كان حسن البنا (1926-1949) زعيم حركة الإخوان أكبر المستهدفين في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الإخوان في علاقتهم بالحكومة... وبأطراف خارجية على الرغم من تواصله شبه اليومي بالشرطة لأغراض أرادتها السلطة، وبعلم الجماعة...فقد نجا من موت مؤكد وهو يؤدي فريضة الحج سنة 1948... وكان مقتله مساء يوم السبت 12 فيفري 1949 أمام مبنى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة... ولم يستطع أحد من الشعب تقديم العزاء فيه وظلت الحراسة قائمة على قبره حتى تغير العهد. (القرضاوي، 2002، ص344).

لم يعلم يوسف القرضاوي بالخبر إلا ضحى الغد عبر الصحافة في سجن الطنطاوي أين مكث فيه أربعين يوم... (محمود عبد الحليم، 1948-1952، ص89) كان الحدث مروعا، فقد اهتز الجميع له لما يمثله حسن البنا عند إخوانه وهو الذي كان يتبعه نصف مليون بحسب ما كتبه إحسان عبد القدوس في مجلته روز اليوسف... وهو في نظر الشاعر يوسف القرضاوي أعظم شخصية أثرت في حياته الفكرية والروحية، فهو مؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة، هذا أني لم أعايشه كما عايشه غيري، فقد كان ﷺ في القاهرة وكنت في طنطا طالبا، ولكنني استمعت إليه في طنطا عدة مرات ورحلت وراءه إلى بعض البلاد لأراه وأستمع إليه، كما قرأت تقريبا كل كتبه ومقالاته... ومما قاله شعرا:

لكَ يا إمامِي يا أعزَّ معلمِ يا حاملَ المصباحِ في الزمنِ العَمِي
يا مرشدَ الدنيا لنَهجِ محمدِ يا نفحةً من جيلِ دارِ الأرقمِ
سيظلُّ حبُّكَ في القلوبِ مُسطَّرًا وَسَناكَ في الألبابِ واسمُكَ في الفَمِ

(القرضاوي، 2005، ص153).

2.3. اعتقال يوسف القرضاوي

كانت حركة الاعتقالات والمداهمات متواصلة، وللنظام الملكي في هذه الفترة عيون لا تنام، وكان يدري أن الحذر لا يدفع المقدور.كانت شرطة النظام الملكي قد واصلت حربها على الإخوان، مستعملة كل أجهزتها ورجالها فقامت بحملات مكثفة على بيوت الإخوان لاعتقالهم بغير مبرر.. وقد أدى هذا الاعتداء، وهذا التحدي إلى ترك كثير من الإخوان بيوت أهليهم إلى بيوت أخرى استأجروها هربا من الاعتقال، وإشفاقا على أهليهم من غارات البوليس، ولكن مع ذلك قتل بعضهم وقبض على بعض آخر. وجاء في كتابات يوسف القرضاوي أنه اعتقل عدة مرات:

أولها عام 1949 نحو عشرة أشهر في عهد الملك فاروق وقد كان في السنة الخامسة الثانوية. ثانيها في 2 جانفي 1954 لمدة شهر ونصف، وثالثها نوفمبر 1954 مدة عشرين شهرا تقريبا توزعت بين 1955- 1956. رابعها في جوان 1962 مدة خمسين يوما قضاها في سجن انفرادي. (القرضاوي، 2005، ص17) وقد منعته حكومة جمال عبد الناصر بعدها من كل اتصال بالشعب.

وكان له في كل معتقل، وسجن، إبداع شعري وصف فيه حاله، وحال الإخوان في مقارعة الظلم والاستبداد، وكان له موقف من السلطة...وكان يرى أن عملية الاغتيالات التي ذهب ضحيتها أبناء مصر لا تسمن ولا تغني من جوع.

كان القرضاوي في شبابه شاعرا مجيدا [...] ولكن الموهبة الشعرية والممارسة تنبئان بأمرين يصيران خصلة وطبيعة في الشاعر كإنسان حتى ولو ترك الشعر وأعني أولا:

الإحساس باللفظ ومضامينه وإيحاءاته وإيقاعاته وفروق الألفاظ المترادفة والمقارنة بعضها من بعض.

الشعور المتدفق والوجدان الحي في التفاعل مع الموضوع الفكري المعالج، فلا يكون قضية نظرية ولكن قطعة من حياته ووجدانه وأعصابه، وينعكس ذلك على بيانه وتعبيره. (العوا، 1424هـ-2004م، ص 852).

وكان في كل ما يكتب من شعر ومسرح يحمل هموم الشعب المصري من جهة، وهموم هذه الأمة الإسلامية التي تدافعت عليها الأمم تأكل من طعامها، وتشرب من مائها ولا تملك اليد التي تردكيد الكائدين وعمل الخائنين.

وكان شعره متواصلا مع التاريخ وكبرياتالحوادث، وشخصياته، يقدمها للقارئ عسى يقطف منها الثمار اليانعة، وعلى الفنان الحق أن يولي هذه الناحية أهمية بالغة ولا يقتصر جهده على بعض المنابع دون غيرها، وان لا نرفع من قيمة تراثه القومي على حساب تراث الشعوب الأخرى، في الوقت الذي لا يجوز فيه الاستهانة بمخلقات أمته وتجربة قومه.(محمد حسن جمعة، 1983، ص5). إن السلطة التي تقبض على رقبة الشاعر هي في الحقيقة محصلة لحشد هائل من السلطات التي تفاعلت وتجادلت، وتشابكت، وتزاوجت، وتناسلت. (أحمد عبد الحي، 2004، ص 21-22).

لقد أفرز اعتقاله مجموعة من القصائد هيفي الحقيقة سجنيات يوسف القرضاوي، وقد تفاوتت في طولها وقد صنفها البعض ضمن الشعر الإسلامي، وسماها البعض شعر المحن، وهي عند البعض شعر المقاومة، مضافا إلى أساليب المقاومة الأخرى التي يتبناها المقموعون في كل مكان وزمان، وفيه كثير من الاحتجاج والإدانة والاتهام للنظام المصري، داعيا إلى مغالبة فكر المحنة أو فكر الأزمة. وكان في كل شعره شديد الإحساس بظلم ذوي القربى وآلمه. فراح يبحث عن مكان يبث فيه شكواه خاصة

واليوم عاودني الملاك فهزني طربا إلى الإنشاد والتلحين

فكان له شعر ملأه حسرات لما وقع له ولإخوانه الذين ذكرهم اسما اسما، ويأتي بأفعال السجانين فعلا فعلا، فقد وثق كل شيء تحديدا لهوية المتخاصمين، وبناء للذات المسلمة في مواجهة الآخر الذي استنفد جهده خدمة لجهات أجنبية. وجاءت سجنياته كالآتي:

مناجاة في ليلة القدر نظمها ليلة السابع والعشرين (27) من رمضان 1369هـ/1949م بمعتقل الطور وهي 28 بيتا.

اشهدي يا سجون، وهي نشيد كتبه الشاعر عام 1949 ليكون إحالة إلى العنف الحاصل بين النظام الملكي والإخوان ومنها:

يا سجون اشهدي قسوة الظالمين
واذكري للغد صبر أهل اليقين
فتية المسجد وحماة العرين
كلهم مقتد بالرسول الأمين
صامد مهتد لا ولن يستكين

(القرضاوي، 2005، ص 107).

زنزانتي وهي 19 بيتا من بحر الكامل وكتبها بعد أن انتقل من معتقل العامرية إلى السجن الحربي بالقاهرة، وفيها أشار إلى أن التعذيب لم يبدأ بعد في أبجديات النظام ومنها:

دار حللت بها أزار وأخدم ونزلتها ضيفا أعز وأكرم
يسعى إلي بها المدير وجنده ويجيئني فيها الطبيب يسلم

النونية، وسماها حسن أدهم جرار ملحمة الابتلاء وهي 314 بيتا من الكامل تحكي قصة اعتقاله يوم 2 نوفمبر 1954.

أم زائرة ولا مزور وهي 138 بيتا من الكامل تصف أساليبالنظام وقسوته مع أم اعتقل ابنها ولم يظهر له أثر.

4. موضوعات سجنيات يوسف القرضاوي

1.4. المعاناة

من المفارقات العجيبة في أدب السجون قديمه وحديثه، أن بعض من أدخل السجن استطاع أن يكتب تجربته السجنية في ظروف صعبة، وبطريقة عجيبة، ثم يخرجها إلى الناس، لتجد مكانها على صدور الجرائد وفي بطون الكتب تستهوي القارئ ولتكون شاهدا على أحداث فظيعة وقعت، وقام بها أشخاص وظفتهم السلطة لأداء مهمات محدودة وواضحة، ظاهرها الإشراف على شؤون السجن وحياة السجناء، وباطنها خلق أجساد طيعة، تستجيب لطلبات السلطة، ولا تعصي لها أمرا، يكون ذلك في مؤسسات عقابية تابعة للدولة.

وفي أدب السجون، تخامر القارئ جملة من الأسئلة لعل أبرزها، أهي الوقائع التاريخية التي تشكل أساس مادته الحكائية؟ أم ميولاته السياسية والإيديولوجية؟... وهي أسئلة طرحها الناقد مُحَمَّد علي الموساوي في مقال عنوانه: الشعري والأنطولوجي (نماذج من أدب السجون التونسي)... (مُحَمَّد علي الموساوي، 2013، ص 48).

لا شك أن موضوعات شعر السجون عند يوسف القرضاوي امتداد طبيعي لشعر السجون عند العرب في كل الأوقات كانت المعاناة والنظر في أساليبها ومظاهرها ونتائجها الموضوع المهيمن سواء أتعلق الأمر بالشاعر نفسه أو بهذه الأم الزائرة ولا مزرور... أم غيرها.

والمعاناة ترتبط نفسيا بفكرة أن كل ما هو ممنوع مرغوب.. وقد فهم القائمون على السجن هذه الفكرة، ونفذوها أحسن ما يكون التنفيذ، وصولا إلى ما لا يقبله دين ولا قانون...فإهانة المرء عمل مدان.

2.4. التعذيب والاعتقال

لقد دفع تعفن العلاقات، والسلوك، وتناقض الظاهر والباطن فرأى يوسف إلى تخمر ذاته مع عصير الشعر وإحساسه بالانكسار والخيبة في النظام المصري أن يمرد الكلمة وصرختها الشريفة مع العوض عن الانكسار..وهنا كشفت النونية عن أبعاد الأزمة النفسية التي تعانيها الذات الشاعرة في نفثات حارة تعتمد على نقل الحقيقة (مُحَمَّد علي الموساوي، 2013، ص86). في سجون بنيت خصيصا لمعاقبة اللصوص والمجرمين وقطاع الطرق والخارجين عن النظام، فهم العصاة الذين ينفذ فيهم أقصى العقوبات التي تستعمل فيها جميع الأدوات كالهراوات، والزجاجات، والكابلات السميكة وكل الأدوات الأخرى يستخدم في انتهاك جسم الإنسان، وهو انتهاك يتسبب بالإضافة للإهانة البالغة للضحايا ألاما مبرحة أيضا. (مايكل كيريغان، 2002، ص 164).

تكشف نونية يوسف القرضاوي أكثر عن وجود التعذيب الذي تعرض له الشاعر وإخوانه ليلا لحظة اعتقاله وبالكيفية التي ترعب أهله...ويتفق الجميع أن عملية الاعتقال أمر يدبر له قبل تنفيذه. ويشترط فيه عنصر المفاجأة أولا وتنفذه الشرطة أو غيرها من الهيئات ذات العلاقة بالأمر والشرطة السرية تمهد الطريق للمنفذين الحقيقيين ولها عملها الدائم، والحضور المستمر في المكان والزمان، لقد حققت هدفها في هذه الليلة الليلاء من شهر نوفمبر 1954، واستطاعت دون مقاومة من أن تضع يدها على صيد ثمين.

لقد وضع هذا الاعتقال حدا لنشاط الشاعر/ الداعية وهو عمل جزئي يمهد لأعمال أخرى تشل حركة الإخوان أو تربكهم لأنهم عادة يملكون جلد الاتصال بالوقائع اليومية. يقول يوسف القرضاوي:

في ليلة ليلاء من نوفمبرٍ	فزعت من نومي لصوت رنين
فإذا كلاب الصيد تهجم بغتةً	وتحوطني عن شمالٍ ويمين
فتخطفوني من ذوي وأقبلوا	فرحاً بصيدٍ للطغاة سمين
وعزلت عن بصر الحياة وسمعها	وقذفت في قفص العذاب الهون
في ساحة (الحربي) حسبك باسمه	من باعث للرعب قد طرحوني

(القرضاوي، 2005، ص 50).

ومنذ هذه اللحظة البائسة، يصبح الشاعر تحت تصرف السلطة، فهو ملك لها في حال تعاونه معها ومتى واصل تمرده وعصيانه فالقانون يخول الحاكم إعلان الحرب على أعدائه والثأر العلني لنفسه.. وهو بذلك رد مباشر على الإهانة والتحدي. (السيد ولد أباه، 2004، ص195).

والنونية من أولها إلى آخرها وصف للفعل ورد الفعل بين سلطتين لا تلتقيان أبدا، وبين قوتين غير متكافئتين، فسلطة السجن بكل قوتها ونفاذها وآلاتها تريد أن تكون فاعلة، يهابها السجناء، أما جماعة الإخوان، ومنهم أسماء ذكرها الشاعر،فموجودة بمعتقلها سلاحهم الصبر الجميل اقتداء بالأنبياء والمرسلين والرجال الصالحين...

صبرا أخي في محنتي وعقيدتي لا بد بعد الصبر من تمكين
ولنا بيوسف أسوة في صبره وقد ارتمى في السجن بضع سنين

(القرضاوي، 2005، ص 63).

والتعذيب الذي رصده الشاعر في النونية مرتبط أوثق الارتباط بالأنظمة الديكتاتورية في التاريخ بالإضافة إلى الأنظمة الاستبدادية في الماضي القريب والحاضر، وكانت له أهدافه القريبة والبعيدة وقد حرمه مؤتمر الأمم المتحدة عام 1984 وعرفه كما يلي:

" أي فعل جسدي أو ذهني، يتعرض بواسطته شخص ما عن قصد لمعاناة قاسية أو ألم مبرح من اجل أغراض مثل الحصول منه أو من شخص غائب على اعتراف أو معلومات أو معاقبته على فعل هو أو أي شخص غائب ارتكبه، أو إرهابه أو إجباره هو أو أي شخص غائب لأي سبب يرتكز على تمييز من أي نوع كان، وذلك عندما تطبق مثل هذه المعاناة أو الألم بواسطة أو بتحريض من أو برضا أو موافقة موظف حكومي أو أي شخص يعمل بصفة رسمية ". (مايكل كيريغان، 2002، ص7).

كان هذا الاعتقال وما تبعه من أساليب التعذيب رد فعل عنيف على ممارسات الإخوان الذين كانوا يعتمدون أساليب الحكومة ذاتها، فكلاهما يستعمل أسلوب ضغط عماده تهييج الجماهير، وكان عند الإخوان الهيجان الديني، الذي كان معروفا عند ملوك وملكات الإصلاح الديني في بريطانيا هدفه إحداث جو عام من الرعب هو–عمليا– القيمة الحقيقية للتعذيب في دولة مستبدة. (مايكل كيريغان، 2002، المقدمة).

كان يوسف القرضاوي وهو يكتب سجنياته مدركا أن أشعاره سوف تكون شهادة على الظلم الذي يلحق أبناء الوطن، وبالكيفيات التي تهتز فيها كرامة الإنسان، لذا فقد سعى لتعرية الجرح النازف ووصف السجون من داخلها... وكان مؤمنا " بأن" الغرض من الكتابة أو الكلام لا يتمثل في تبيان المرء على حق أو إثبات أنه مصيب، بل في محاولة إحداث تغيير في المناخ الخلقي يكفل لنا ان نرى العدوان عدوانا وان تمنع وقوع عقاب ظالم بالشعوب أو بالأفراد أو يضع لها حدا إن كان قد بدأ معيار الإقرار بالحقوق والحريات الديمقراطية باعتباره معيارا يطبق على الجميع، لا إشباعا لضغينة قلة مختارة. (26 إدوارد سعيد، 2008، ص 167).

كانت السلطة زمن الملك فاروق (11/ 1920/02– 18 /1965/03 بكادري بإيطاليا) وأجهزة الأمن في حكومة جمال عبد الناصر (1956/06– 1970/12/28) تبحث عن كل نقطة ضعف في سجناء الحربي بالقاهرة، واقتنعت أن مشكلة هؤلاء هي إمعانهم في رفض الحياة الاجتماعية، إمعانهم في رفض الحياة مع غيرهم طبقا للقواعد المنظمة لهذه الحياة المشتركة [...] ومواجهته من خارجه حيث يكون متاحا لديهم الثأر منهم باغتصاب أمته وماله ..إمعانهم في التقيد بصلاحية مسالكهم الفردية للحياة. (عصمت سيف الدولة، 1978، ص 73).كما اكتشفت هذه السلطة أن جماعة الإخوان لهم دينهم وللآخرين دينهم، فكان لا بد من مراقبتهم مراقبة لصيقة، وهي مراقبة تسمح للسلطة بمعرفة السجين من خلال حبسه وكيفية إدانته، فدست بين هؤلاء عيونا ليكون عندها الخبر اليقين كما اعتمدت إلى تنصيب أجهزة المراقبة عن بعد... والسلطة العسكرية انطلاقا من هذا وذاك تصل إلى الحقيقة التي تريدها..إن هذا الاستثمار في هذه الأجساد يعجز في حالات كثيرة عن الاستثمار في النفوس التي تربت على حب الله، والإخلاص له سرا وعلانية،

ولا يهمها الأكل والشرب والمنام، ولها عن كل ذلك بدائل ترضى به ربها، وليكون مصدرا لقلق السلطة بل وغضبها... كان الصوم وكان السهر في الله بقراءة كتابه أمرين يزعجان زبانية النظام:

سدوا علي الباب كي أخلو إلى كتبي، فلي في الكتب خير خدين
وخذوا الكتاب، فإن أنسي مصحف أتلوه بالترتيل والتلحين
وخذوا المصاحف إن بين جوانحي قلبا بنور يقينه يهديني
الله أسعدني بظل عقيدتي أفيستطيع الخلق أن يشقوني

(القرضاوي، 2005، ص 59).

وقد كشفت الأبيات السابقة "أن الطغاة السياسيين، العسكريين منهم على وجه الخصوص والفاشيين الدينيين الذين يظنون أنهم يتكلمون باسم الرب كانوا على مر العصور أعداء الكتب وكانت معركتهم الكبرى ضد المعرفة". (أحمد عبد اللطيف، ص 115).

كان التاريخ شاهدا على الهدف من إنشاء السجون وهو حرمان الناس من الحرية، وذلك تعذيب في حد ذاته، وأضاف الحكم الجديد الخاص بالسجون بأن يوضع السجين في زنزانة صغيرة ومظلمة، ثم يعطى حمية دقيقة من الخبز والماء ضئيلة بما يكفي لضمان الموت النهائي بالجوع. (مايكل كيريغان، 2002، ص 20).

وتبقى ملحمة الابتلاء ليوسف القرضاوي شاهدا آخر على كيفية اختراق السلطة لأجساد السجناء.. فالطعام والشراب مما يقويان الجسم، ويؤكده الواقع والعلم.. ولكنه في السجن الحربي...

ففطورنا عدس مزين بالحصى إن الحصى فرض على «التعيين»
قد عفته حتى اسمه وحروفه من عينه أو داله والسين
وغداؤنا «فاصولية» ضاقت بها نفسي، فرؤية صحنها تؤذيني
وعشاؤنا شيء يحيرك اسمه فكأنما صنعوه من غسلين
لا طعم فيه ولا غذاء وإنما يحلو لنا من قلة التموين
طبق يكال لسبعة أو نصفه وعلي أن أرضى وقد ظلموني

(القرضاوي، 2005، ص 58).

وكان ذلك استمرارا للتعذيب، وتحقيقا لمتعة، وهدفا مرجوا، فيوسف القرضاوي يمتنع عن الأكل بدعوى أن الأكل لا يصلح لآدمي... ومن هنا تتجسد أكثر سادية من له سلطة على تلك الأجساد التي يصيبها التعب والإرهاق... فيأتي عليها المرض من كل الجهات بسبب الجوع الذي هو شر لا بد منه.

من راح يشكو الجوع فهو غذاؤه ومن ابتغى ريا فأي معين!
ومن اشتكى الإسهال يجلد عشرة هي وصفة «الثوار» للمبطون!
ومن اشتكى وجع الصداع فمثلها أو ضعفها بمكان «الأسبرين»
ومن اشتكى من سكر فبنحوها يجد العليل أعز «أنسولين»

(القرضاوي، 2005، ص 58).

ومن هذه الأمراض الطارئة، بل المستمرة، تواصل إدارة السجون مراقبة أجساد الإخوان مراقبة لصيقة، ينشأ عنها هيمنة السلطة على كل السجن، فيكون الاستسلام أو المقاومة. والنونية – من خلال موضوعاتها – أحد النماذج لما اتفق على تسميته أدب القمع أو الاضطهاد مارسه كتاب كان هدفهم التعبئة والتحريض وانتقاد الأوضاع السائدة ومهاجمة الحكام، والكشف عن هموم الشعب ومسبيبها. (سالم المعوش، 2003، ص 67). كانت مشكلة زبانية النظام في السجن الحربي في فئة من الناس هم:

كم عالم ذي هيبة وعمامة	وطئوا عمامته بكل مجون
لو لم تكن بيضاء ما عبثوا بها	لكنها هانت هوان الدين!
وكبير قوم زينته لحية	أغرتهمو بالسب والتلعين
قالوا له : انتفها – بكل وقاحة –	لم يعبأوا بسنينه الستين
فإذا تقاعس أو أبى يا ويله	مما يلاقى من أذى وفتون!!

ولما كان يوسف القرضاوي جزءا من هؤلاء المقموعين، كان عليه أن ينقل صورتهم إلى الناس خارج السجون، ومن هنا تبدأ المقاومة التي تصبح قانونا مقابل تجدد القمع في كل حين.." ولما كانت السجون ملكا للدولة، وجزءا من سياستها، فسلطتها حالة في كل ما له علاقة بالسجن، وما دام الأمر كذلك فما الذي يمنع انبثاق المعارضات والمقاومات والنضالات من كل صوب أيضا، خاصة أن مكانها ومكان السلطة واحد". (عبد العزيز العيادي، 1994، ص 67).

ولما كانت وطأة السجون على الناس قوية كان لابد من انتفاضات وثورات وحركات احتجاجية تصدر من داخل تلك السجون، وهو دليل على إمكانية انهيار مؤسسات القمع في أي لحظة غاضبة. كما أن السكوت الطويل على ظلم الظالمين، وقمع القامعين تساعد على إطلالة عمر السلطان. (أحمد عبد الحي 2004، ص 183).

وكان لا بد للحرف أن ينطق لا أن يصمت خجلا فلا يشدو بعذب الأماني أو يصوغ النفس أملا وأحلاما ونجوى... إن هذا الحرف جزء من حياة الشاعر فلا يجب أن يغتاله الطغاة... فلماذا يصمت الحرف على صنع الطغاة– هكذا غنى الشاعر الليلي خالد زغيبة. (المعوش، 2003، ص 367).

3.4. الوجه الآخر للتعذيب

وفي قصيدة أم زائرة ولا مزورة نوع آخر من المعاناة تجلى في عذابات أم تولت تربية وليدها وقد مات أبوه، كان من واجب الأم ان تزرع في ولدها الأخلاق الفاضلة فأحب دينه ووطنه وكان الطليعة دائما في أصحابه... وكانت صوره جنينا وصبيا وشابا عالقة في ذهن أمه.

ولما كان الظلم قد ساد، فقد امتدت يد النظام إليه لتخطفه، وتتعجب الأم من الأرض التي يقتل أبناءها في غلظة وكبوت ومن السلطة التي لم تسمح لها يوما بزيارة تروي الغليل بنظرة وشهود.

وقد صاغ يوسف القرضاوي فكرته في شكل قصة، ويكون العيد مناسبة للفرح عادة، وللاجتماع ثانية، وقد زفت إليها البشرى فزغرد قلبها طربا بلقاء وليدها، وتستعد الأم لذلك استعدادا نفسيا وماديا وقد اعتقدت أن الزمان. قد صفا لها... فهي تقف طويلا أمام

السجن الكبير تسعد لسعادة مثيلاتها بحضن وبقبل أبنائهن. وامتد انتظارها وساورها الشك، وتسأل الواقف أمامها: يا ترى ما عاقه؟ أو لم يزل في القيد والتصفيد؟ ويلح عليها السؤال:

أم يا ترى يشكو السقام؟ فديته بالنفس! أسئلة بغير ورود

ولتكون الفاجعة بعد لحظات وتصرخ وقد وعت الحقيقة مرة... لقد قتل الفتى بعد ان عذبوه وهو يتحمل الأذى بثبات أطواد وقلب أسود... (القرضاوي، 2005، ص 12-13).

استطاع القرضاوي في "أم زائرة ولا مزورة" أن يتخذ الأم في حزنها نموذجا لمقاومة الاستسلام الذي هو منهج تؤسس له الحكومات، وتعمل على استمراره وسط العامة من الناس، فكل عمل تنجزه السلطة داخل السجون مقترن بأهداف آنية وبعيدة مقابل ما يصدر عن الإخوان الذين يدعون إلى نهج الله، نهج مُحَمَّد، لا نهج فرعون ولا نمرود.

كان شعر القرضاوي يشيد بقيم الدين كما جاءت في القرآن والسنة وكما جسدها الخليفة عمر بن الخطاب، وكان ينكر على السلطة المصرية ممارساتها...فجمال عبد الناصر إنما شيد صورته من كبار ظلمة العالم كنيرون، ونابليون بونابرت، وكمال أتاتورك الذي أجهز على الخلافة الإسلامية عام 1924 وجعل تركيا بلدا علمانيا.

ذلك ما أغضب الإخوان، وشاعرهم القرضاوي الذي كان موجعا في الحديث عن السلطة المصرية وتصويره لطبيعة الحكومات العسكرية التي تنبني على الاستبداد وتشيع طبائعه حولها...وتعادي شعبها في كل أحوالها إذا جاوزوا حدود الطاعة. وكانت قصائده التي رأت النور في ظلمات السجون أو في ساحات المعتقلات انحيازا لمنهج الإخوان الذين رأوا في حكومات مصر بعدا عن الدين جسده الزعيم عبد الناصر.

صحيح، لقد انكشف أمر السلطة تاريخيا، فالأنانية طبيعة الحكام والاحتكار وتجميع السلطة في رجل واحد طبع سار... فقد رفض الإخوان فكرة السيطرة التي نهجها جمال باسم القيم كالديمقراطية والحرية... وهي قيم لا تجد الأرض الخصبة، ولا الهواء النقي لتنمو طبيعيا.

وقد جاء في حوار أجراه الكاتب والصحفي أحمد بهاء الدين مع الرئيس أنور السادات في فيلم السادات الذي قام بالدور فيه الفنان الراحل أحمد زكي وبدا في ذلك المشهد أن الرئيس أنور السادات يعرض بأسلوبه المعهود على الكاتب أحمد بهاء الدين فكرته لإنشاء ثلاثة منابر سياسية على نحو عاجل، بينما يحاول أحمد بهاء الدين أن يقنع السادات بأن التحول يتم عبر الدستور لكي يكون ثابتا ومضمونا.

وكانت الدهشة لما قال السادات: دستور إيه يا أحمد...يا أحمد انا وجمال عبد الناصر آخر الفراعنة...لا أنا ولا عبد الناصر محتاجين نصوص عشان نحكم!! (جاسم مُحَمَّد زكريا، 2018، ص 174). لذا كان يوسف القرضاوي في اشهدي يا سجون واضحا:

مرحبا بالحراب مرحبا بالسجون
في سبيل الكتاب كل شيء يهون
إننا لا نهاب كل ما يوعدون
كيف ينسى العذاب أننا مؤمنون

(القرضاوي، 2005، ص 107). ولهذا فالصراع دائم بين من يرى القرآن دستورا، وبين من لا يؤمن بالدستور ولو وضعه الإنسان.

كان لجمال عبد الناصر الصورة الأخرى التي ارتبطت بجماهير الشعب في مصر، وفي غيرها، يحيونه إجلالا وتعظيما لإنجازاته بعد سنوات من حكمه.. فقد اعترف له الشاعر العربي نزار قباني بكل الفضل والسماحة يوم عادته مصر... فقد أنشأ قصيدته "هوامش على دفتر النكسة" عقب هزيمة 1967 وفيها كان قاسيا على البغاة، غاضبا لما أصاب الأمة من تمزق وهوان..

كان إلى جانب نزار قباني النقاد الطاهر مكي ورجاء النقاش والرئيس جمال عبد الناصر وفيه قال قباني: أجد الأمانة التاريخية تقتضي أن أسجل للرئيس جمال عبد الناصر موقفا لا يفقهه عادة إلا عظماء النفوس واللماحون، والموهوبون الدين انكشفت حصيرتهم وشفت رؤيتهم فارتفعوا بقيادتهم وتصرفاتهم إلى أعلى المراتب الإنسانية والسمو الروحي. (أحمد عبد الحي، 2004، ص 176).

5. تلازم السجن والكتابة

تكشف سجنيات يوسف القرضاوي عن وجوب توثيق كل فعل وضده ليكون دليلا على الحركة والحياة بعيدا عن الصمت.فتاريخ السجون يقدم تبريرا لوجودها، فهي عامل لانتشار الأمن والطمأنينة وسط السكان، ودليل على سيادة القانون لتكون مؤسسة عقابية تسيرها الدولة ولكن في اجتماع اللصوص والمجرمين مع المثقفين والدعاة في مكان واحد أمر يطرح سؤالا وسؤالا، كان في ظن القائمين على النظام أن هؤلاء جميعا وفي حالات احتجاج او عصيان إنما هو خروج عن النظام ويستحق المعاقبة في تجربة تسمى تجربة السجن أو تجربة العزلة وهي محنة يعيشها الأفراد.

ذلك ما كشفت عنه سجنيات القرضاوي الذي أدرك أن السلطة تتعمد الإساءة والإذلال ف" الحكم على مصداقية أي سلطة وسلامة قصدها إنما ينطلق من كيفية ممارستها للسلطة والوسائل التي تختارها لتنفيذ هذه الكيفية وشرعية هذه الوسائل وأخلاقيها". (سالم العمودي، 2000، ص 61).

ومن ذلك –مثلا– أن السلطة تحقق أهدافها المعلنة وغير المعلنة كالاستمتاع بالمساءلة والترصد والمراقبة والتفتيش والكشف حين يوضع الأفراد في زنزانات منفردة حتى تتمكن من كل سجين بل كل السجناء الذين يمثلون خطرا على السلطة. كان يوسف القرضاوي في كل سجنياته "لا يهمل الأشياء الصغرى باسم الضرورة الكبرى للمجموع فكأنه يتمثل بحس يقظ قولة "بوريسفيان" لا تهمني سعادة كل الناس بل سعادة كل واحد منهم". (عبد العزيز العيادي، 1994، ص 22).

5. خاتمة

وهكذا جاءت سجنيات يوسف القرضاوي لتصنف في الأدب الفاضح الذي لم يتستر على قبح السجون وقساوة سجانيها، واستعداء السلطة على جزء من هذه الأمة التي أرادها جمال عبد الناصر حانية رقابها تنتظر القطع والدفن في أماكن لا يعرفها الأهل والأصحاب وقد علم أن من جعل نفسه شاة دق عنقه الذئب.

كما كانت قصائده دليلا على ممارسة السلطة لسياسة الإكراه قصد تدجين من تراه عاصيا..لكن عصيان الإخوان –في نظر الشاعر– إنما هو خدمة لطاعة الله ورسوله، وخدمة لمصر التي أرادوا لها التمكين بعيدا عن الرعب الذي تبثه الشرطة والعسكر في نفوس الآمنين.. حتى ينشأ في النهاية مجتمع أفراده كأسنان المشط.

قائمة المراجع

1- أحمد عبد الحي، 2004، الشاعر والسلطة، القاهرة، مصر، إيتيراك للنشر والتوزيع، ط1.

2- أحمد عبد اللطيف، هولوكست الكتب، الحرق كوسيلة عن بقاء الطغاة.

3- أحمد قصبية وآخرون، الشيخ البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه،الجزائر، دار الأمة للطباعة.

4- إدوارد سعيد، 2008، المثقف والسلطة، ترجمة د.مُحَمَّد عناني، رؤية للنشر والتوزيع.

5- سالم العمودي، 2000، سيكولوجية السلطة،بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، ط2..

6- سالم المعوش، 2003، شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر،بيروت، لبنان، دار النهضة العربية، ط1.

7- السيد ولد أباه، 2004، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، بيروت، الدار العربية للعلوم، ط1، ص195.

8- عبد العزيز العيادي، 1414هـ-1994م، ميشال فوكو (المعرفة والسلطة)، م ج د ن ت، ط1.

9- عصمت سيف الدولة، 1978، إعدام السجان، دار المسيرة، بيروت، ط1، ص 73.

10- مايكل كيريغان، 1422هـ-2002م، أدوات ووسائل التعذيب، ترجمة مركز التعريب والبرمجة، الدار العربية للعلوم، ط1.

11- مُحَمَّد حسن جمعة، 1983، قضايا الإبداع الفني،بيروت، دار الآداب، ط1، ص5.

12- مُحَمَّد خفاجي، (2004)، الحياة الأدبية في العصر العباسي، الاسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة، ط1.

13- مُحَمَّد زغلول سلام، الاسكندرية، الأدب في عصر العباسيين، منشاة المعارف، دط، دت، ص 523.

14- مُحَمَّد سليم العوا وآخرون، 1424هـ-2004م، يوسف القرضاوي (كلمات في تكريمه وبحوث في فكره وفقهه مهداة إليه بمناسبة بلوغه السبعين)، مج2، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1.

15- مُحَمَّد علي الموساوي، أيلول تشرين1، 2013، الشعري والانطولوجي (نماذج من أدب السجون في تونس)، كتابات معاصرة، ع89، مج23..

16- محمود عبد الحليم، 1948-1952، الإخوان المسلمون (أحداث صنعت التاريخ رؤية من الداخل)،ج2، الاسكندرية، دار الدعوة، دط، دت.

17- ينظر ديوان ولي الدين يكن، ضبطه وشرحه أنوان القوال، ط1، 2001،بيروت، دار الفكر العربي،صص17-19.

18- يوسف القرضاوي، 2002، ابن القرية (ملامح سيرة ومسيرة)، القاهرة، دار الشروق، ط1.

19- يوسف القرضاوي، 2005، الأعمال الشعرية الكاملة، (نفحات ولفحات، المسلمون قادمون، ابتهالات ودعوات)، الخروب، قسنطينة، دار اليمن للنشر والتوزيع والإعلام.

20- جاسم مُحَمَّد زكريا، أفريل – جوان، 2018، دساتير الربيع العربي، معادلة الثورة والدولة، محاولة في التأصيل،الكويت، عالم الفكر.